دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

الأعراب من خلال مخطوطة
"تأريخ العرب في الإسلام" للدكتور جواد علي

أ.د. يوسف كاظم الشمري
أستاذ التاريخ الإسلامي – قسم التاريخ
كلية التربية للعلوم الإنسانية
جامعة بابل – جمهورية العراق

مُلَخّص

إن فهم المكونات الاجتماعية لكل مجتمع أحد أهداف الدراسات الإنسانية من تأريخ وعلم نفس واجتماع، من هنا نجد أن محاولة فهم هذه المكونات بالاستعانة بروايات التأريخ التي يعتقد بصحتها واستبيانات عالم الاجتماع أو المكونات النفسية لأفراد مجتمع ما من خلال ما يجمعه أولئك المشتغلون في هذه المجالات وغيرها تعدّ ضرورية لوضع معطيات عدة أمام صناع القرار من ساسة أو علماء أو مديرين تنفيذيين، لأن معرفة طريقة تفكير المجتمع وفهمه لذاته هو مهم للأفراد انفسهم أحيانًا، من هنا نجد محاولات متعددة لذلك من علماء ومفكرين بعضهم درس في خارج العراق، فاذا كانت الأضواء قد سلطت جيدًا على مؤلفات وأفكار علي الوردي التي تناولت طبيعة المجتمع العراقي واثر البداوة فيه أو الصراع بين الحضارة والبداوة عنده، فإننا نجد مؤرخًا مهمًا هو [جواد علي] تناول هذا الموضوع أيضًا، وكلا المؤلفين تناولا هذه الثيمة (البداوة والحضارة) في ثنايا مؤلفاتهما خلال فترة الستينيات من القرن الماضي، ومع اختلاف مجالات اختصاصيهما النسبي، إلا أن اهتمامًا لا نعرف تحديد مدى امتداده في عقود اقدم من عدمه بهذا الموضوع مع اقتراب بين الطرفين في وصف صفات البدو والحضر. فهل اطلع أحدهما على ما كتبه الآخر وأشعل شرارة البحث فيها؟ أم أنه اهتمام عفوي؟ لا نعلم على وجه التحديد، لكننا في مكالمة مع الدكتور عدنان البياتي الوكيل القانوني لعائلة الدكتور [جواد علي]، قال إنه كان يحضر ندوات الجمعية العراقية للعلوم الاجتماعية وكانوا قد تناولوا هذا الموضوع، وإن الدكتور [جواد علي] سأل الدكتور علي الوردي عن ذلك، فأشار إلى أن اختصاصيهما أي [جواد علي] وعلي الوردي مختلفين. علما انهما ينتميان لذات المنطقة، وهي: "مدينة الكاظمية" في بغداد.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٤ مايو ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ٢٩ يونيو ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

التاريخ الإسلامي؛ الحضارة الإسلامية؛ الأعراب؛ جواد علي؛ تأريخ العرب

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/kan.2024.292271.1133

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

يوسف كاظم الشمري، "الأعراب من خلال مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام للدكتور جواد علي".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد السادس والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٤. ص ٥٠ – ٦٦.

Corresponding author: hum.yousif.kadhum@uobabylon.edu.iq
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّأريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

إن فهم المكونات الاجتماعية لكل مجتمع أحد أهداف الدراسات الإنسانية من تأريخ وعلم نفس واجتماع، من هنا نجد أن محاولة فهم هذه المكونات بالاستعانة بروايات التأريخ التي يعتقد بصحتها واستبيانات عالم الاجتماع أو المكونات النفسية لأفراد مجتمع ما من خلال ما يجمعه أولئك المشتغلون في هذه المجالات وغيرها تُعَدّ ضرورية لوضع معطيات عدة أمام صناع القرار من ساسة أو علماء أو مدراء تنفيذيين، لأن معرفة طريقة تفكير المجتمع وفهمه لذاته هو مهم للأفراد انفسهم أحيانًا، من هنا نجد محاولات متعددة لذلك من علماء ومفكرين بعضهم درس في خارج العراق، فاذا كانت الأضواء قد سلطت جيدًا على مؤلفات وأفكار علي الوردي التي تناولت طبيعة المجتمع العراقي وأثر البداوة فيه أو الصراع بين الحضارة والبداوة عنده، فإننا نجد مؤرخا مهما هو [جواد علي] تناول هذا الموضوع أيضًا، وكلا المؤلفين تناولا هذه الثيمة (البداوة والحضارة) في ثنايا مؤلفاتهما خلال فترة الستينات من القرن الماضي، ومع اختلاف مجالات اختصاصيهما النسبي، إلا أن اهتمامًا لا نعرف تحديد مدى امتداده في عقود اقدم من عدمه بهذا الموضوع مع اقتراب بين الطرفين في وصف صفات البدو والحضر. فهل اطلع أحدهما على ما كتبه الآخر وأشعل شرارة البحث فيها؟ أم أنه اهتمام عفوي؟ لا نعلم على وجه التحديد، لكننا في مكالمة مع الدكتور عدنان البياتي الوكيل القانوني لعائلة الدكتور [جواد علي]، قال انه كان يحضر ندوات الجمعية العراقية للعلوم الاجتماعية وكانوا قد تناولوا هذا الموضوع، وان الدكتور [جواد علي] سأل الدكتور علي الوردي عن ذلك، فأشار إلى أن اختصاصيهما أي [جواد علي] وعلي الوردي مختلفين. علمًا أنهما ينتميان لذات المنطقة، وهي: "مدينة الكاظمية" في بغداد.

مع تركيز من علي الوردي على أثر صفات البداوة في بنية وتفكير المجتمع العراقي. وإشارات الدكتور [جواد علي] والتي تحاول تحليل شخصية البدو والأعراب في مفتتح الدعوة الإسلامية، مع ميله لنقد هذه السلوكيات بطريقة سلبية وتحليلات لدوافع هذا السلوك مع عرض للفروقات بين سلوك ساكني الحضر من أهل المدن والبداة الأعراب، وطرح وجهة النظر الإسلامية من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة مقرونة بالروايات التأريخية، وكان متركزًا في الجزئيين الأول والسابع من كتابه: "المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام"، وفي صفحات متفرقة من مخطوطته: "المفصل في تأريخ العرب في الإسلام". ولا يستبعد أن يكون الاهتمام ناتج عن الدراسات العديدة والتحليلات لابن خلدون في مقدمته عن العصبية وما تناوله من صفات الأعراب والبدو من قبل مستشرقين وعرب آنذاك.

ومهما يكن من أمر فإن البحث ليس معنيًا بما كتبه [علي الوردي] أو غيره بل هو معني بما كتبه الدكتور المرحوم [جواد علي] عن البدو والأعراب في كتاب المفصل وفي المخطوطة فقط، مع عدم زعمنا الإحاطة إحاطة كاملة بزوايا الموضوع لتقييدات فنية تخص حجم البحوث التي تنشر في الدوريات، وقد يصلح للكتابة فيه بصورة أوسع من قبل باحث متفرغ يجمع فيه ويقارن ليخرج بنتائج أوسع وادق.

اعتمد البناء الاجتماعي في الجاهلية على النظام القبلي في حياتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فالقبيلة التي لها عرفها وصنمها ولهجتها كانت تمثل الوحدة السياسية التي مثلت مفهوم الأمة والجماعة عند أهل الجاهلية وحارب الإسلام عند مجيئه هذه الأعرابية الجاهلية محاولاً الانتقال من مفهوم القبيلة المشتت الى مفهوم الأمة الموحد مع إيمان ديني يعتمد التوحيد ونبوة الرسول الذي أرسله سبحانه وتعالى منقذًا وبشيرًا ونذيرًا وبكتاب سماوي منزل للعمل بأحكامه والأوامر التي أمر بها. ويمكننا التساؤل عن مدى سهولة أو صعوبة التحول هذا، والجواب ببساطة أن الأمر لم يكن سهلاً فمن الصعب إزالة ما رسخ في أذهان وسلوك العرب من جذور أعرابية تتبنى النزعة الفردية والعصبية القبلية وعدم الانقياد لسلطة تحاول فرض مفاهيمها على ما تجذر من قيم متراكمة منذ أزمان متطاولة، فالأمر لا يمكن تغييره بسنين قليلة أو حتى عقود، فحتى من كان يسكن المدن كمكة ويثرب "المدينة" ويمكن عدهم "حضرا" فانهم لم يكونوا حضرا تمامًا، بل كانوا أشباه حضر. وفي مرحلة بين البداوة والتحضر

وكثيرًا ما تتغلب الأعرابية على التحضر فيها، ويكن ملاحظة ذلك في طريقة الحكم وفي التعصب للبيوتات، وكذلك وجود النزعة الفردية التي تلجأ إلى السيف لتقاوم به إذا وجدت أن مصلحتها الخاصة قد تضررت. ولاقى الرسول (ﷺ) جراء ذلك عنتا غير قليل فهؤلاء وإن نطقوا بالشهادتين وأسلموا إلا أنه لم يكن من السهل عليهم ضبط انفسهم وكبح عواطفهم في المسائل التي تثير النفوس مثل تذكر الصراعات القديمة والخلافات والاعتزاز بالنسب أو تذكر أيام الجاهلية ومعاركها كذلك أمور تتعلق بالمال كتوزيع الغنائم بعد انتهاء المعارك، كل هذه الأمور يسيل لعاب الأعرابي "البدوي" لها[1].

أولاً: الأعراب في اللغة والاصطلاح وتأريخ ما قبل الإسلام

يُعَدّ البحث في المكونات الاجتماعية وعناصرها والعوامل المتنوعة المؤثرة فيها أمرًا مهما لفهم السلوك الاجتماعي وأنماطه ودوافعه، ونعني به هنا ما يخص التقسيم الذي يضعه علماء الاجتماع للمجتمعات وتقسيمهم إلى بدو وحضر، ولا شك فان الصحاري العربية الواسعة قد أنتجت البداوة بملامح سلوكها التي حاول علماء الاجتماع وصفه واستطاع المؤرخون في سياق وصف الحوادث من ثَمَّ وصف أنماط السلوك من خلال تحليل الحوادث التأريخية الخاصة بهم، وكذلك ما يمكننا تأمله من اثر العوامل الطبيعية والبيئية في تكوين هذا السلوك ووصفه بعض المفكرين منهم ابن خلدون في كتابه المقدمة، وعلي الوردي في كتبه "طبيعة المجتمع العراقي"، و"لمحات اجتماعية من تأريخ العراق الحديث"، وكتب الدكتور فالح عبد الجبار وكتب ومفكرين أخرين، نحاول تناول بعض آراء [جواد علي] التي أوردها في مخطوطه غير المنشور: "المفصل في تأريخ العرب في الإسلام" في الأعراب ورأي الرسول الأكرم (ﷺ) بهم وتحليلاته لسلوكهم، في أثناء الدعوة الإسلامية وحتى ما عرف بالردة والتي أبداها تجاههم، ورغم انه يعطي أمثلة تأريخية موردًا ما يراه من صفات الأعراب فإننا نجد أن كثيرًا من أراءه سلبية تجاههم، وهي وجهة نظره الخاصة والتي تتلاءم مع الرأي العام السائد بخصوصهم، مع علمنا أننا لا نجد من يدافع كثيرا عنهم، وقد تأتي من انعدام الثقة بين الطرفين مع طرح وجهة نظر أحادية في الغالب من جانب الحضر الذين يوجد فيهم الكتاب والمتعلمون، عكس أهل البدو غير المتعلمين، و[جواد علي] وحتى علي الوردي إنما يمثلان بحكم بيئتهم وجهة نظر أهل الحضر، مع الافتراض محاولتهم الكتابة بحيادية كونهما عالمين يطرحان الآراء بتوازن دون انحياز لطرف على حساب الآخر.

١/١- تعريف بـ[جواد علي]

ولد [جواد علي] في بلدة الكاظمية في الجانب الغربي من بغداد في عام ١٩٠٧م، وتعلم القراءة والكتابة بها ثم انتقل الى الأعظمية في الجانب الشرقي لبغداد؛ ليلتحق بمدرسة أبي حنيفة، ثم توجه الى الثانوية المركزية في بغداد ليدرس سنتين أهلته للدخول الى دار المعلمين العالية في العام ١٩٢٩م، وتخرج منها في العام ١٩٣١م، وعمل لسنتين في مجال التدريس ثم حصل على بعثة لدراسة التأريخ في العام ١٩٣٣م، والتحق بجامعه هامبورغ ونال شهادة الدكتوراه عن أطروحته: "المهدي المنتظر وسفراءه"، ثم عاد الى بغداد ليعمل مدرسًا في دار المعلمين العالية، ثم أيد وشارك في ثوره رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١م[2] التي قامت ضد الاحتلال البريطاني للعراق، وعندما أخفقت الثورة اعتقل لمدة شهرين.

تزوج [جواد علي] سنة ١٩٤٢م، من السيدة زهرة طاهر محمد عارف التي رافقته في سفراته المتعددة الى الولايات المتحدة "جامعة هارفرد" عام ١٩٥٦م، والى المملكة المتحدة "معهد الدراسات الشرقية" سنة ١٩٦١م، وانجب منها ثلاثة، هم: علي من مواليد ١٩٤٣/١/١ الذي اكمل دراسته الإعدادية في ثانوية الأعظمية، وتخصص في مجال البنوك والإدارة، وآمنة المولودة في ١٩٤٤/٧/١٤، التي تحمل شهادة الماجستير في الإدارة من جامعة ليدز وعملت في المركز العربي للتطوير الإداري، ثم أسيل وهي مولودة عام ١٩٥٠م، وأنهت دراستها في الكيمياء في لندن[3]، وبعد رجوعه من سفرته العلمية أعيد إلى وظيفته ثم عمل سكرتيرًا للجنة التأليف والنشر التابعة لوزارة المعارف، والتي أسست عام ١٩٤٧م، وعرفت لاحقًا باسم: "المجمع العلمي العراقي"،

ثم ما لبث أن بدأ كتابه الأهم: (تأريخ العرب قبل الإسلام) الذي انجزه في ثمانية مجلدات خلال المدة: (١٩٥١ -١٩٦٠م)، وطبع في مطبعة المجمع العلمي العراقي، ثم لاحقًا في عشر مجلدات كبيرة، ثم تحت اسم: "المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام" وهو احد الكتب المهمة في تحقيقه وشموله وسعة معلوماته ودقتها عن التأريخ العربي قبل الإسلام، ونشر في هذه المدة أبحاثًا عدة منها: موارد تأريخ الطبري وموارد تأريخ المسعودي، وعبد الله بن سبأ، وتأريخ الصلاة في الإسلام. وأبحاث كثيرة أخرى يصل عددها إلى أكثر من ١٤٥ بحثًا.

ظهرت الطبعة الأولى من كتاب: "تأريخ العرب في الإسلام -السيرة النبوية" في العام: ١٩٦١م، بـ: حوالي ١٧٠ صفحة، ويعتقد الدكتور نصير الكعبي أنه يمثل في فكرته ومخططه العام مشروعًا موسوعيًا عبر عن مراده فيه، بالقول: "هذا كتاب في تأريخ العرب في الإسلام، جعلته صلة وتكملة لكتاب: تأريخ العرب في الإسلام، وهو مثله في أجزاء سيتوقف عددها على الزمان الذي ستقف فيه ضربات قلبي عنده"، ويمكن ملاحظة العزم على إنجازه مع متمثل كلماته من شعور بالمرض ربما فهي ذات أصداء تمس المشاعر، ثم يكمل قائلاً: "وعلى البحوث التي سأتطرق إليها"، قاصدًا في الكتاب الذي يعمل عليه، وما ذكره [جواد علي] يوضح ما كان يخطط له في إنجاز الكتاب يتضمن إنجاز تأريخ مفصل للعهود الإسلامية، لكن الوقت لم يسعفه مع ما كان يعانيه من أمراض، إلا أن ينجز تأريخ للسيرة النبوية والخلافة الراشدة حتى عهد الإمام الحسن عليه السلام، ويبدو أن نيّة كتابة الكتاب كانت موجودة في ذهنه منذ إنهاءه مرحلة الدكتوراه في ألمانيا، ولا نشك في أن بحثه في المصادر الإسلامية لكتابه: "تأريخ العرب قبل الإسلام"، واختلاط المصادر الإسلامية بالنقوش القديمة ومصادر أخرى فيه جعلته يدرس ويتأمل المصادر الأصلية، ومن هنا انجز بحثيه في الموارد، فتأريخ الإسلام يرتبط بتأريخ قبل الإسلام في مصادره وفي موضوعاته بقوة. فبدأ بالتعمق في موارد التأريخ الإسلامي المؤثرة كمقدمة لاستيعاب الروافد المؤثرة التي شكلت الرواية التأريخية العربية، لكن المقدمة الأكثر تأثيرًا كانت دراسة تأريخ العرب قبل الإسلام. ويرى الكعبي أيضًا أن استيعاب التأريخ الإسلامي وتركيبته المعقدة لا يمكنها أن تكون تامة دون معرفة الأصل التاريخي لظواهره الأولى فالمقارنة بين ما قبل الإسلام وما بعده هي التي تُظهِر منحنيات التأريخ الإسلامي؛ لذا أخذت حقبة دراسة تأريخ ما قبل الإسلام من [جواد علي] وقتًا طويلاً، فحص من خلاله العناصر الدقيقة فيها قبل انتقاله للخوض في التأريخ الإسلامي[٤]؛ لذلك قال: "لذا سأدخل في موضوع عصر النبوة دون مقدمة ولا تمهيد"، ثم ما ذكره لاحقًا بهذا الخصوص يتضح جليًا في قوله: "أن هذا الكتاب بأجزائه هو استمرار وصِلة لأجزاء كتاب تأريخ العرب قبل الإسلام"؛ لذا فالمشروعين مترابطين وان احدهما يمثل القاعدة للآخر[٥].

ويأسف الدكتور الكعبي في مقالته لعدم وصول الكتاب كاملاً عدا الجزء الأول منه أو مقدمته، ويتساءل عن عدم إتمام هذ المشروع الكبير ويضع عدة احتمالات لذلك، منها: انه ربما يكون قد انجز وظل مخطوطا حبيس الورثة، أو أنه تعرض للضياع، ثم يستدرك ويقول: "ومن يدري فقد يأتي اليوم الذي يخرج فيه هذا العمل مطبوعًا ليضيف في طريقته وتناوله أسلوبًا آخر في دراسة التأريخ الإسلامي". وقد تكون الإجابة على تساؤلات الدكتور الكعبي ممكنة قريبًا وتتمثل في أن المخطوطة عُثر عليها ويتم العمل على إخراجها وتحقيقها من قبل الباحثين: الدكتور عامر عجاج، والدكتور يوسف الشمري قريبًا إن شاء الله.

٢/١-الجذور البعيدة

لغرض معرفة الجذور العميقة للسلوك الاجتماعي واصل تنوعه بحسب أمكنة السكنى والعوامل المؤثرة فيه فقد تساعد الحوادث التأريخية في فهمنا؛ لذلك ورغم أن الأمر قد تتداخل فيه علوم أخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس والجغرافيا، لكن التأريخ حفظ لنا حوادثا يمكن تحليلها لنستدل على معرفة بعض ما يدفع فرد ما للسلوك بطريقة مختلفة عن آخر. وفي محاولة تتبع سلوك الأعراب من تتبع للعوامل البيئية والمناخية وأثر الطقس وإمكانية التحرك على مساحات شاسعة، وكذلك نمط الارتحال والتعامل مع السلطات، وكذلك النزعة

الفردية أو نزعة الارتياب من الآخر المختلف، ونمط التعاملات مع أهل المدن من ساكني المدر ونظرة الشك العميقة بين الطرفين، فانه قد يفيد الذهاب الى آماد زمنية أبعد. فثنائية ساكنو المدن وساكنوا الصحراء تبدو ثنائية موغلة في القدم، فيرى الأستاذ سعيد الغانمي[٦] إن كلمة دورو وصحرو بالمسمارية تمثلان ثنائية خفية، فدورو تمثل الأسوار والمدينة وحائط القلعة والحصن، وهي مشتقة من دوران السور حول الأحياء السكنية وهي تمثل روح المدينة وجوهرها، وخلاصة قوانينها أما خارج أسوار المدينة فتمتد "صحرو" او "صيرو"، وهي تدل على الصحراء والبرية والأرض القفراء الجرداء وتمثل النقيض لدورو. وترد في ملحمة كلكامش حيث إن خارج الأسوار يغص بالصيادين والوحوش والعراء ممثلا للبربرية، عكس ما موجود في داخل الأسوار من قوانين سياسية واجتماعية بينما تتبادل الحيوانات هناك الجهل والعداء.

تأمل الناس الحروب والصراعات منذ زمن قديم وكان العبرانيون منهم، فحكوا قصة الأخوين جاعلين من أحدهما حارثًا للأرض وهو قابيل، وراعي الغنم هابيل، وربما تكون القصة رمزًا لنمطين من أساليب الحياة قبل نشأة المدن، فالرعاة يحتاجون مراع واسعة لعيش قطعانهم، في حين كان المزارعون يلجئون الى الوديان لزراعة الأرض أو لمناطق تسقط فيها الأمطار، والرعاة دائمو الحركة بحثًا عن مراع جديدة، بينما الفلاحون مستقرون مع محاصيلهم، والرعاة لا يملكون سوى قطعانهم وخيامهم. أما الفلاحون فيبنون مستوطنات وقرى تتحول إلى مدن أحيانًا لتصبح مراكز للإدارة والتجارة؛ فتكون هناك توترات مستمرة بين الطرفين، ففائض الطعام وما تحويه مستقراتهم من كماليات تكون موضع حسد الرعاة، وأصبح الفلاحون أكثر ضعفًا وعرضة لغزو الرعاة لأنهم أصبحوا أكثر تحضرًا ورخاءً مقارنة بالرعاة الذين يقدرون صفات العدوان والقوة والجلد، ومثلوا فرقًا عسكرية تمتثل وتدين بالولاء لزعمائها[٧].

فتوفر عناصر الحضارة الذي يتمثل بالاستقرار والإنتاج والتجارة ومن خلال الخبرات يتعرف الفرد على نقيضه البدوي ابن الصحراء الذي يوصف بالسلب والنهب والترحال، فكان "ست" في الحضارة المصرية إلهًا للشر في أسطورة اوزيريس، ومن ست جاء سيت أو شيت، وكان إلهًا للصحاري والبوادي، واطلقوا اسم سيترويت على صحراء سيناء وان البدو قوم أنجاس، ويشير سفر التكوين "أن كل راعي غنم رجس للمصريين"[٨]، وكان الهكسوس ملوكا رعاة سيطروا على مصر، ويمكن للترحال أن يلغي مفهوم الارتباط بالأرض والخضوع للسلطة لصالح مفهوم الولاء للقبيلة ولرباط الدم[٩].

٣/١-العرب بحسب أهل اللغة

جيل من الناس معروف، والأعراب هم سكان البادية خاصة، والنسبة إليهم أعرابي، والأعرابي هو البدوي، ورجل أعرابي إذا كان بدويًا صاحب نعجة، وانتواء وارتياد للكلأ وتتبع مساقط الغيث. ويفرح الأعرابي إذا قيل له يا عربي، وإذا قيل للعربي يا أعرابي غضب. فالأعراب هم من نزلوا البادية أو جاوروا أهلها، ومن يستوطن المدن والقرى العربية فما ينتمي الى العرب منهم عرب وان لم يكونوا فصحاء، وفي تفسير سورة الحجرات (١٤) قالت الأعراب آمنا، انهم قوم من بوادي العرب قدموا النبي (ﷺ) طمعًا في الصدقات لا رغبة في الإسلام فسماهم الله تعالى، بـ: "الأعراب"، فقال: "الأعراب أشد كفرا ونفاقا"[١٠]. ويجد الزبيدي ضرورة التفريق بين العرب والأعراب وان من لا يفرق بينهم وربما كان يتحامل على العرب، ورأى انه لا يقال للمهاجرين والأنصار أعراب بل هم عرب لاستيطانهم القرى وسكناهم المدن، ومن يترك الاستيطان منهم يقال لهم: تعربوا أي صاروا أعرابا بعد أن كانوا عربًا[١١].

البدو لا نجد مَنْ يدافع عنهم وهم غير متعلمين تأريخيًا. ولا نزعم إحاطتنا بكل آراء [جواد علي] في الموضوع، لكننا ومن قاعدة ارتباط آراءه في تأريخ العرب قبل الإسلام بآرائه في المخطوطة التي اطلعنا عليها ونعمل على إخراجها مع الزميل الأخ الأستاذ الدكتور يوسف كاظم الشمري، من هنا بدأت ببعض آراءه في الأعراب في تأريخ العرب قبل الإسلام قبل الولوج في صميم الموضوع. آخذين بوجهة نظر [جواد علي] في احدى مقابلاته عندما رأى عدم جواز الفصل بين تأريخ

العرب قبل الإسلام وتأريخهم في الإسلام؛ لأنه يرى أن الإسلام صفحة من تأريخ العرب وتتمة له وجزء منه، وان لمحاولة فهم الإسلام والدعوة لابد من دراسة جذور وضع الجزيرة العربية وخارجها لمعرفة فلسفة الدعوة، وإلّا بقي فهم المؤرخ لتأريخ الإسلام غير كاف[١٢].

حظي العرب باهتمام [جواد علي] في كتابه: "المفصل فيتأريخ العرب قبل الإسلام"، وفي مخطوطته: "المفصل في تأريخ العرب في الإسلام"، ففي وصفه للبيئة الصحراوية يشير الى اثرها في العرب وحياتهم، فالجزيرة العربية ارض صحراوية ذات شمس محرقة مع صعوبة التنقل بها دون استخدام الجمال ذات التكيف الخاص لهذه البيئة مع شحّة المياه وبالتالي قلة المزروعات وشحّة الموارد الزراعية، ويرى أن ذلك جعلها بعيدة عن مطامع الممالك المجاورة ورأى أن للسماء الصافية فيها وتألق النجوم والكواكب أثرا في تفكيره الديني فهرعت انفس أهلها الى رحمن رحيم وبارئ مصور وحافظ حفيظ هو الله سبحانه وتعالى؛ لذا نجد أن الديانات السماوية الثلاث في أو قرب أمكنتهم، في صحاري سيناء وفلسطين وصحراء العرب[١٣]، وأثرت البيئة أيضًا في طبائع الكرم وفي تعبيره الأدبي في الشعر وفي التقاليد والأعراف، ويرى أن ما ذكره قد يمكن تعميمه على اليمن وأعالي الحجاز أيضًا.

ويستمد [جواد علي] بعض معلوماته من كتاب لـ: "حافظ وهبة"، عنوانه: "جزيرة العرب في القرن العشرين"، وهو لا يرى حرجًا من إسباغ صفات البدو والأعراب المعاصرين له وربما حتى الحاليين وطبائعهم، على القدماء منهم، ويجدها متشابهة ويسوغ ذلك بقوله: "أن الزمان وإن تباعد بين عرب الجاهلية وعرب القرن العشرين؛ إلا أن الخصائص العقلية لأكثر أهل البادية المنعزلين عن عالمهم الخارجي لا تزال هي هي، لم تتغير في كثير من الأمور"[١٤].

وترتبط لفظتي البدو والحضر ارتباطا يكاد يكون فيه من التلازم الكثير كجزء من تأريخنا الاجتماعي والسياسي مع مشاعر متفاوتة فيما بينهما، تتراوح بين الإعجاب والازدراء، وتغلب عليها صورًا نمطية محددة ومتضادة تجمع بين الخساسة والنبل فالتصورات النظرية غالبًا ما تبقى هي المهيمنة وتصنف المجتمع الى هذين النمطين من طرق العيش، ويمكننا أن نجد مصداق ذلك على ما يعبر عنه في النتاج الأدبي والشعر منه بخاصة، فالإبل مصدر عز البدوي، ورمز المستقر هي النخلة، وغالبا ما كان البدو ضد مفهوم الدولة، أما المستقرون فهم مع قيام النظم التي توفرها الدولة لما يعود عليهم بالاستقرار والأمن ورخاء العيش[١٥].

ونجد الثنائية تتردد في صفحات ما كتبه [جواد علي] ووجهة نظر الطرفين أحدهما بالآخر، في: "المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام"، وفي مخطوطة: "المفصل في تأريخ العرب في الإسلام"، وهو ما سنتناوله في المبحث التالي. فيشير أيضًا إلى اختلاف عادات الحضر عن عادات البدو ويرى أن أهل حائل أقرب إلى طباع البداوة. أما أهل مكة والمدينة فهم أبعد مظهرًا عن البداوة؛ ويعلل اختلاف الطباع إلى اختلاف طبيعة العمل، فاشتغال أهل المدن بالتجارة واختلاطهم مع ثقافات متنوعة، لكن يمكننا القول أن لا عادات مميزة بوضوح بين الطرفين؛ لأننا يمكننا أن نجد التداخل في العادات بينهما بحكم عدم الانعزال التام بين فئتي البدو والحضر واختلاطهم المستمر لضرورة ذلك الاختلاط وإن كان نسبيًا[١٦]. وربما ترث المدن كثيرًا من السمات القبلية على مستوى القيم والأخلاق والأنماط الثقافية والمفاهيم والخطاب المتداول والسلوكيات العامة والفردية[١٧].

ويذكر [جواد علي] أن التعرب بعد الهجرة أمر غير مرغوب به لدى المسلمين الأوائل، أي أن يعود الذي أسلم إلى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن هاجر واستقر معهم دون أن يكون لديه عذر، وقد يصل الأمر إلى عده مرتدًا، وأن شهادة البدوي على الحضري مكروهة وأورد الحديث النبوي: "لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية"، مسوغًا ذلك بعدم ضبطهم للشهادة على وجهها، ولما في البدو من جهالة بأحكام الشرع. ويذكر تسمية عرف بها العربي الحضري، وهي: "القراري" أي الذي يستقر ولا يرحل، وعندهم أن كل صانع "قراري"، وهي نظرة تحوي معان تبخيسية لَمَنْ يعمل حِرَفيًا وهو ما يأنف منه العرب، ويستدرك [جواد علي] مبينا أن النعوت السلبية قد لا تنطبق على جميع الأعراب، ويبين أن الأعراب ليسوا سواء فيما يوصفون به، فهم مختلفون ولا

يمكن الجزم بالتعميم على جميعهم بأوصاف سلبية معينة بحسب قربهم أو بعدهم عن الحضارة والتحضر أو وفرة الماء من عدمه أو غناهم أو فقرهم، وإنما وصفوا ببعض الصفات نتيجة ظروف خاصة وأحوال بعينها؛ لذا فهي تكسبهم تلك الصفات، ويقول مخففا من التعميمات ذات المدلول السلبي التي نجدها موزعة في ثنايا الكتاب بان ما ذكره عن الأعراب قد ينطبق أيضًا على بعض أهل المدر أيضًا[١٨].

وفي مجال منهج [جواد علي] في حديثه عن نمطي البدو والحضر فانه يتنقل بين الوصف وسرد الوقائع التي تعزز آراءه والتي تبدو واضحة أكثر فيه[١٩]، وبيّن التعليل للعوامل التي أدت الى ذلك مركزا على الظروف الجغرافية والطبيعية والبيئية، فالظروف التي كونت وصنعت الطبائع والخصائص المميزة للإعرابي لها مقاييسها الخاصة والتي تختلف عن مقاييس الحضر، مع ابتعاد العقليتين عن بعضهما فلا احد يفهم الآخر جيدًا، فالحضر لا تستسيغ أسلوب حياة البدو ولا يأمنوهم أو يطمأنون اليهم، والبدو لا يتحملون قيود المدنية وتحضرها، وينظرون الى الحضر بشك، والحضر وينظرون اليهم بريبة بعدّهم جماعة حيَل وشر لهم. فالبدوي قد يحارب معك لكنه إن شعر بالهزيمة تقترب منه ومن الذين حالفهم فلا مانع لديه من سلب حلفائه، معللاً ذلك بانه أولى بأسلاب الحليف من أعدائه. وان لا منطق في ترك الغنائم للعدو التي هو أولى بها من غيره، وهو في حاجة إلى الأسلاب حتى وإن كانت من أدنى قيمة، مع حرمانه العدو من الاستفادة منها[٢٠].

وتتواصل تحليلات [جواد علي] في المؤثرات التي صاغت ذهنية البدوي وتتحكم بتصرفاته فهو يرى أن الأحوال التي يعيشون فيها والمحيط الذي يألفونه من جفاف وحرارة وضوء ساطع واختلاف في درجات الحرارة والضغط الجوي وانحباس المطر وما يتبعه من شحٍ في الكلأ، وبالتالي قلة نتاج إبلهم ومواشيهم يتبعه بساطة في المأكل وأمثال ذلك، كله كان مؤثرات كونت جزءًا كبيرًا من عقلياتهم الخاصة وثقافة فهمت الأمور بمنطقها لا منطق الآخرين[٢١]. ومع ما يكرره "[جواد علي]" من أثر المناخ والطبيعة في صياغة السلوك إلا أنه لا يفصّل في كيفية اثر عامل طبيعي ما أو مناخي في هذا السلوك كسطوع الشمس مثلا، لكنه يتناول ذلك في وصفه للفروقات بين أعراب اليمن وأعراب الحجاز في نظرتهم للمهن والحِرَف، فأعراب اليمن ليست لديهم ذات النظرة لهذا الأمر؛ ويعزو ذلك إلى اختلاف طبيعة اليمن الجبلية وتوفر المياه والأمطار، مما جعل من اليمن أقل حرارة في الصيف، ومع توفر الأحجار وبناء المدرجات لغرض الزراعة على السفوح لم يأنف الأعرابي اليمني من الزراعة[٢٢]، وربما هو بالتالي أيضًا بحاجة الى مهن أخرى ترتبط بها فتكون هنا الحاجة هي التي فرضت عليه ذلك.

ويستدرك متأخرًا في أجزاء لاحقة موضحًا أن أمر الأثر الجغرافي في تكوين شخصية الشعوب يحتاج إلى تجارب دقيقة وأسس علمية ولا يجب التعميم ما دمنا لا نمتلك بحوثًا ودراسات دقيقة يقوم بها علماء متخصصون في البوادي والحواضر ودرجة تأثر الأمكنة بالمؤثرات الخارجية، مع عدم اعتقاده بوجود عقلية واحدة لجميع من سكن الجزيرة العربية وجوارها لجميع أولئك الناس في كل العصور والعهود[٢٣]، وهو ما يبدو متناقضًا مع ما ذكره في صفحات سابقة من أن البدوي سلوكه متشابه منذ العصور القديمة وحتى عصر ابن سعود.

والبدو هم القبائل المتنقلة طلبًا للمرعى والماء ومع مشقة مثل هذا النوع من العيش فان البدوي يشعر بالحرية التي لا توفرها حياة المدينة، ومع خشونة الحياة التي تجعل القبائل تتقاتل في سبيل المرعى والماء فان ذلك أدى الى ترسخ سوء الظن بالآخر لدى البدوي، فالآخر في نظره هو العدو الذي يحاول سلب ما في يده، أو يحاول حرمانه من المرعى، وأزمة البدوي الحقيقية في انحباس المطر وقلة المرعى، فاذا ضاقت الأرض به وقل المرعى فلا بد له من الزحف والقتال أو الهجرة الى أمكنة أخرى، فهم في قتال وحرب، ومن هنا كان للقبيلة قيمها الخاصة فالفرد البدوي يقوى بأبناء عمومته، ومع ذلك فلا يمكن تعميم ما يفعله البدو من تعد وشر على السابلة وقطع طرق القوافل على الجميع وغيره من الصفات العدوانية، فنجد في البدو من الكرم ما لا نجده عند سواه وكذلك في السماحة والترفع عن الدنايا. فهو كريم جواد يقدم لضيفه كل شيء عنده ليأكله ويحبيه

بكل وسائل الإكرام، لكنه لا يمتنع عن سلب غريب يجده في طريقه[٢٤].

ويرى [جواد علي] أن لا قيمة حربية للبدوي ويرى أن الأمراء اعتمدوا على الحضر الذين يرى انهم يصمدون فيصبرون على بلاء الحرب والقتال، ويرى أن البدو كثيرا ما كانوا شرًا على من صاحبوه من الأمراء، ويقول انه اذا ما بدت الهزيمة على من صحبوه كانوا هم البادئين بالنهب والسلب من حلفائهم وحجتهم في ذلك انهم أولى بذلك من أعدائهم –كما وضحنا سابقًا– وانه لا يمكن الاعتماد عليه فبعضهم اسلم لكنه كان يتربص بالمسلمين الدوائر ويحاول الغدر بهم فاذا ما احس بضعف لدى المسلمين انقلب عليهم، أو اشترط شروطًا صعبة التنفيذ عليهم؛ لمحاولة إخراج نفسه من الوضع الحرج الذي أصاب المسلمين، فقال [جواد علي] البدوي: "فلا يكلّف نفسه، ولا يخشى من مصير سيء ينتظره إن غلب المسلمون". وجاء في قوله تعالى: "الأعراب أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، وَمِنَ الأعراب مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"[٢٥]، والأعرابي لا يسلم عن فهم او اعتقاد بل لأن رئيسه اسلم بحسب [جواد علي]، وان قبائل عدة دخلت النصرانية قديما لدخول زعمائهم فيها، ووصفت سورة الحجرات ذلك، فقال تعالى: "قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ، قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[٢٦]، لكن الله يستثني في القرآن الكريم بعض الأعراب من الكفر والنفاق والتربص، بقوله تعالى: "وَمِنَ الأعراب مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[٢٧].

وكذلك يرى انه لا بد للبدوي من سلطة تردعه وتضرب على يده وان الحق لدى البدوي هو القوة التي يخضع لها ويخضع غيره بها، والقوافل التي تمر بارض قبيلة ما وليس معها أحد يحميها من أفراد هذه القبيلة فهي معرضة للنهب؛ لذا اعتادت القبائل اصطحاب عدد غير قليل من القبائل التي تمر بأرضها[٢٨]. والبدوي لا ينسى الإساءة لكنه لا ينسى المعروف أيضًا، مع ازدراءه لأهل المهن والحرف. وقد يرى البعض انهم غير خاضعين لقانون ويقول انهم يخضعون فقط لقانونهم الخاص وأعرافهم خضوعًا صارمًا ومَنْ يخالفه يطرد من القبيلة ويعطي مثلا لذلك في ما عرف بالصعاليك وشعراءهم المعروفين[٢٩].

ويشير الى المنطق الذي سيسير عليه البدوي في المحافظة على تقاليده ورؤيته للأمور بما ذكره القرآن الكريم من وصف لذلك في قوله سبحانه وتعالى: "حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا"[٣٠]، وجاء في قوله تعالى: "إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ".[٣١] ويشير الى الفردية المفرطة المتأصلة في نفس الأعراب، وأشباه الحضر وفي أكثر الحضر أيضًا، (ونجده هنا لا يفرق بين الفئتين في هذا الأمر)، والتي يرى أنها أنانية أدت إلى إعاقة المجتمع العربي جاهلية وإسلامًا عن التقدم أو الاتحاد ويعطي مثالاً على ذلك حين صلى وصلى معه أعرابي مسلم فقال في دعائه: "اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا"، فنراه يقدم نفسه على الرسول (ﷺ) مدفوعا بهذه الأنانية، المشوبة بالاعتزاز بالنفس.

ثانيًا: الأعراب والحضر في مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام

لا يمكننا عند المقارنة بين أسلوبي جواد على ونظرته إلى الأعراب والحضر في كتاب المفصل ومخطوطته تأريخ العرب في الإسلام إذ نجد فروقًا كثيرة عدا ما كان يورده في المخطوطة من أمثلة تأريخية تؤيد آراءه بينما استرسل في المفصل في ذكر صفات الأعراب وفي كلا الكتاب والمخطوطة مقارنات تميل في معظمها في ذم البدو مستمدا آراءه في الغالب من نصوص دينية من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو من وقائع

تأريخية أوردتها المدونات، خاصةً في كتب السيرة، تشير في الغالب الى النظرة غير المطمئنة للأعراب وسلوكهم تجاه الرسول (ﷺ) وحوادث الدعوة. منها عدم اطمئنان الأعراب لأهل المدن (إنما ظهر الإسلام في مدينة هي مكة والقائمين بها من أهل مكة "المدينة" أيضًا)، وربما لثقلهم الديموغرافي فلا دليل على أن الثقل السكاني عند المقارنة كان يميل لأهل المدن، من هنا كانت المعاناة ربما في محاولة إيصال الرسالة وقوانينها السماوية ذات العبادات والطقوس المحددة لمثل هؤلاء، مع وجود بعض العبادات التي تتطلب اغتسالاً بطقوس معينة (مع شحّة المياه مثلاً)، لكنه عوضها بالتيمم. ومتطلبات ذات أبعاد مادية بدفع مبالغ للزكاة كانت ضرورية لإقامة حكومة تمتلك جيشًا وموظفين يحتاجون الى معدات ورواتب متواصلة للقيام بنشر الدعوة مع ما ترسخ في أذهان الأعراب من أن القوي الآخر هو مَنْ يفرض أخذ الأموال منه، فكانت إشكالية صعبة للرسول (ﷺ) والخلفاء في ترسيخ ذلك وجعله متواصلاً ومستقرًا في أنفس الناس كقواعد من قواعد الدين، مع ما كرهه الأعراب من الانصياع لحكومة مستقرة تفرض قوانينها الخاصة خارج منظومة قوانينها وأعرافها المحلية التي كانوا ينظرون إليها باحترام شديد.

وربما يكون التشابه مرده إما إلى أن كتابة الكتاب والمخطوطة وجمع مادتهما كانا يسيرا جنبًا إلى جنب لدرجة أنه لم تتضح أفكار أخرى لدى [جواد علي] لتكون مختلفة في المخطوطة عنها في الكتاب، مع معرفتنا بصدور الكتاب في وقت مبكر مقارنة بالمخطوطة التي لم تطبع وتصدر حتى الآن، لأنها لم تكتمل متطلباتها في حياة [جواد علي]، أو أن أسبابًا ما أدت الى عدم إكمالها، أو أنه كان يأمل أو يطمح في الحصول على متطلبات أو مصادر أخرى لإكمالها إلى مديات زمنية أبعد من السيرة النبوية والخلافة الراشدة، إلى الكتابة عن العصر الأموي والعباسي والعهود اللاحقة الأخرى، لكن القدر لم يمهله لإكمال ذلك؛ فبقي كتابه مخطوطًا عدا المدخل الى السيرة النبوية الذي صدر في بداية الستينيات.

وربما يسأل سائل عن تفسير [جواد علي] لما قد يطرح من القول عن معقولية استمرار طبائع لفئة اجتماعية ما لآلاف السنين، وبقاءها هي ذاتها رغم مرور العصور، فيرى [جواد علي] أن ثمة استمرارية تأريخية واتصال بين عادات الأعراب القديمة وحتى عصره؛ فيقول أنه لا يجد فرقًا بين البدوي الذي عاش قبل الميلاد وبين عهد إسماعيل (ع)، والذي قالت في وصفه التوراة: "إن يده على الكل، ويد الكل عليه"[٣٢]، وبين بدوي اليوم، مادام مرتبطا بالصحراء ومادام يجد في الحكومات ضعفا، ويجد في نفسه قوة ليأخذ ما يجده في يد الآخرين، وعندما يهدأ ويسكن فليس بسبب تغيير عاداته، لكن يكون كذلك عندما يجد نفسه أمام سلطة اكثر قوة منه لا يستطيع مقاومتها لضعف أسلحته[٣٣].

ويشير [جواد علي] الى النظرة السلبية التي كان الإسلام ينظر بها أحيانا الى الأعراب ويورد آيات قرآنية يدعّم فيها رأيه، فوصفهم بالجفاء والغلظة والنفاق وبالتظاهر باللسان بما يخالف الجنان، بقوله تعالى: (قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيم)[٣٤]، وقال تعالى: (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأعراب مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيم)[٣٥].

اعتمد البناء الاجتماعي في الجاهلية على النظام القبلي في حياتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فالقبيلة التي لها عرفها وصنمها ولهجتها كانت تمثل الوحدة السياسية التي مثلت مفهوم الأمة والجماعة عند أهل الجاهلية، وحارب الإسلام عند مجيئه هذه الأعرابية الجاهلية محاولا الانتقال من مفهوم القبيلة المشتت إلى مفهوم الأمة الموحد مع إيمان ديني يعتمد التوحيد ونبوة الرسول الذي أرسله سبحانه وتعالى منقذًا وبشيرًا ونذيرًا وبكتاب سماوي منزل للعمل بأحكامه والأوامر التي أمر بها. ويمكننا التساؤل عن مدى سهولة أو صعوبة التحول هذا والجواب ببساطة أن الأمر لم يكن سهلاً فمن الصعب إزالة ما رسخ في أذهان وسلوك العرب من جذور أعرابية تتبنى النزعة الفردية والعصبية القبلية وعدم الانقياد لسلطة تحاول فرض مفاهيمها على ما تجذر من قيم متراكمة منذ أزمان متطاولة، فالأمر لا يمكن تغييره بسنين قليلة ولا حتى بعقود، فحتى مَنْ كان يسكن المدن كمكة والمدينة ويمكن

عدهم "حضرا" فإنهم لم يكونوا حضرا تمامًا، بل كانوا أشباه حضر. وفي مرحلة بين البدو والحضر وكثيرًا ما تتغلب الأعرابية على التحضر فيها، ويمكن ملاحظة ذلك في طريقة الحكم وفي التعصب للبيوتات وكذلك وجود النزعة الفردية التي تلجأ الى السيف لتقاوم به إذا وجدت أن مصلحتها الخاصة قد تضررت. ولاقى الرسول (ﷺ) جراء ذلك عنتا غير قليل فهؤلاء وان نطقوا بالشهادتين وأسلموا إلا أنه لم يكن من السهل عليهم ضبط انفسهم وكبح عواطفهم في المسائل التي تثير النفوس مثل تذكر الصراعات القديمة والخلافات والاعتزاز بالنسب أو تذكر أيام الجاهلية ومعاركها كذلك أمور تتعلق بالأسلاب والغنائم التي يتم تقسيمها بعد انتهاء المعارك[٣٦].

وما يعزز الصورة السلبية للأعرابي ما ورد في بعض الروايات التي يصف فيها الرسول (ﷺ) الأعراب في مواقف معينة، فنجد أوصافًا تصف الأعراب بالخشونة أو ما يتبع اسم الأعرابي من ألفاظ مكررة تلتصق بهم، مثل: أعرابي قح، أو أعرابي جلف، أو في الحديث النبوي الذي يقول: "من بدا جفا"، أي صار فيها جفاء الأعراب. وذكر أن الرسول (ﷺ) وصف رجلاً بدويًا من بني مدلج اسمه سراقة، قال فيه (ﷺ): "وإن كان أعرابي بوالا على عقبيه"، وهي جملة توحي بعدم اهتمام الأعراب بنظافتهم الشخصية، فتقلل من مكانتهم. ووصف عيينة بن حصن قائد غطفان يوم الخندق بـ: "الأحمق المطاع"، ويروى أنه دخل على النبي (ﷺ) دون إذن، وعندما سأل عن سبب دخوله دون إذن، قال: ما استأذنت على مضري قبلك. ثم سأله عن الحميراء التي معه. فقال الرسول هي عائشة بنت أبي بكر. فقال له طلقها وانزل لك عن أم البنين يعني زوجته. وهي روايات تدل على جفائه[٣٧].

وكان بعض الأعراب أسلموا ونزلوا بين المسلمين والمشركين بداية الدعوة، وحاولوا تحين الفرص مضمرين الميل مع مَنْ هو أقوى، فإذا ظهر المسلمون وانتصروا كانوا معهم، وإذا حصل العكس كانوا مع الطرف الغالب. مع أن بعضهم تظاهر بالإسلام ولم يكن مسلمًا حقًا، وهم إنما يفعلون بحسب [جواد علي] لحماية أنفسهم، ويقول إن ذلك يحصل ويقع في كل حزبين في الماضي والحاضر، ويحاول الغمز بمتحزبين عاصرهم، ويقول: "إن الكثير من المنتمين للأحزاب إنما دخلوها لأغراض المصلحة والمنفعة، مع التظاهر بالحماس ونصرة الحزب الذي ينتمون له"[٣٨]. والإيمان بالقول فقط لم يكن مقبولاً، بل كان يشترط الهجرة الفعلية وترك الديار، فالفعل لا القول هو مَنْ يجعل المرء منتسبًا للإسلام أيام الهجرة من مكة إلى المدينة، لكن النبي (ﷺ) لم يعرف عنه قيامه بإجبار الأعراب بالقتال معه[٣٩].

ولا شك أن محاولة ترسيخ مؤسسة دينية وسياسية جديدة في محيط قبلي له قيمه وأفكاره لم يكن بالأمر الهين على الرسول (ﷺ) فالقبيلة كانت "ولا زالت" مؤسسة راسخة التقاليد، وأخذت وقتًا وجهدًا كبيرين، ومن هنا يرى [جواد علي] أن العصبية القبلية كانت مشكلة المشاكل منذ عهد الرسول (ﷺ) فكان الصراع بين الأوس والخزرج صراعًا عميقًا، لكن الهجرة والاختلاط مع المهاجرين، قد خفف إلى حد ما هذا الصراع، لكنه يطل برأسه بين حين وآخر، ورأى أن المؤاخاة كممارسة لم يكن امرأ جديدًا وأن لها ما يشبهها قبل الإسلام[٤٠]، دون أن يذكر أمثلة على ذلك، وفي أمر التعامل بين الرسول (ﷺ) والأعراب ومدى الثقة بينهم فانهم كانوا لا يثقون بالأعراب، ويجعلونهم في الاحتياط مع اعتمادهم على الحضر بالدرجة الأولى، ويمكننا هنا أن نجد ثغرة في معلومات وردت سابقا عن الفروقات في سلوك الأعراب واعتمادهم التعصب وهنا نجد أن هذا الصراع يجري في مدينة هي: "المدينة المنورة" لا بين قبائل الصحراء.

فعند كلامه عن يثرب وسكانها ووضعهم الاجتماعي يذكر أنها كانت مستوطنة استقر أهلها في دور من مدر[٤١]، ويضيف أن سكانها كانوا مثل الأعراب، يتعصبون لأحيائهم، ويجيبون نداء النخوة ويهتاجون بسرعة أن مس احدهم بسوء، ويشعرون انهم بيوت، وأن العصبية للبيت أولاً منهم، ومن الصعب تغيير طبائع متأصلة منذ مئات السنين. وتبدو الصورة التي يقدمها [جواد علي] لما تم الاصطلاح عليه "أهل الحضر"، وهم سكان يثرب "المدينة في الإسلام"، صورة طبائع بدوية وهو شعور وسلوك انتقل من شعور البدو بانتمائهم القبلي عند مواجهة الأخطار. ويبدو عدم التعميم مهما عند إطلاق الأحكام فلا يمكننا وصف طرف بصفة

مطلقة مع انتقال الطبائع والسلوك في محيط منفتح يختلط البدو والحضر فيه في أحيان كثيرة.

ويشير أيضًا الى ما كان عليه أهل مكة في تفكيرهم الذي يقترب من تفكير أهل القبائل، فهم أهل عصبية للبيوتات أيضًا مع أمزجة حادة، لكنه يخفف من قوله بذكر أن مهن أهل مكة واشتغالهم بالتجارة جعلهم يميلون الى السلم والتفاوض لا الى القتال والعراك لأن همّ التاجر هو الكسب لا التناحر والصراع الذي لا يُكسبه شيئًا[٤٢]. وأشار في كلامه عن القبائل المهاجرة إلى المدينة بأنها لم تكن من قريش كلها، ويستدل على قول للنبي (ﷺ): "المهاجرون من قريش على رباعتهم"، ويجد في هذا دليلاً على وجود مهاجرين من غير قريش[٤٣].

ويمكننا التساؤل عن مدى اعتماد الرسول (ﷺ) على الأعراب في حروبه ومع عدم وجود إحصاءات عن أعدادهم وثقلهم السكاني والحربي، حيث إننا لا نعرف نسبة الأعراب مقارنة بأهل المدن فأننا نفترض أن نسبتهم أكبر، فلا يظن أن مكة والمدينة مدن كبيرة جدًا، بل ربما هي أقرب إلى بلدات متوسطة الحجم في ظل شحّة الموارد النسبي، مع ما ذكر من أسماء القبائل الكثيرة التي تم ذكرها في أثناء رواية السيرة النبوية وحوادثها التأريخية. ويشير [جواد علي] إلى أن الرسول الأكرم (ﷺ) لم يكن يعتمد على الأعراب في الحرب كثيرًا، بل كان يكلفهم بواجبات ثانوية لا تؤثر في نتائج المعارك، وكان عليهم إعاشة أنفسهم شأن بقية المقاتلين؛ ويعلل سبب عدم اعتماده عليهم هذا إلى أنهم لا يمتلكون الصبر على القتال طويلاً، مع إتقانهم لأسلوب الكر والفر، وإذا ما علمنا امتداد أمد القتال أمد معين أو عندما يطول القتال، فانهم لا يبقون ويذهبون لبيوتهم، وعندما يباغتون خصومهم ويحصلون منه على غنائم فانهم يعودون بها سريعا والفرار بها عندهم أولى من البقاء؛ لذا فان الجاهليون من الحضر لم يكونوا يثقون بأهل البادية ويعدونهم مخادعين وغشاشين. ويضرب على ذلك في مثلا من التأريخ الحديث، ولا نعلم مدى دقة وعلمية ضرب أمثال لحوادث قريبة على موضوعات أقدم عهدًا فيقول: "إن آل الرشيد[٤٤]، قضى عليها الملك عبد العزيز آل سعود باستيلائه على حائل"[٤٥].

ويذهب إلى القول في عدم إجبار الأعراب على القتال مع الرسول وإن كانوا مسلمين، إلا أن يأذن لهم الرسول أو إذا استنصرهم نصرته ولم يكن لهم من الغنيمة والفيء شيء ألا أن يجاهدوا مع المسلمين[٤٦].

قام الرسول بعد انتهائه من غزوة بني قينقاع في السنة الثانية للهجرة، وتعرضه لقوافل المشركين بعقد تحالفات مع الأعراب الذين تقع ديارهم في محيط المدينة ممن تمر قوافل قريش بهم، مع تأديبه لمن كان يظهر الطمع منهم أو التجاسر على المسلمين لأنه إن تساهل معهم دون أن يجعلهم يحسون بقدرته فلا يكون منهم إلا التمادي والإكثار من تحرشهم بالمسلمين؛ لأن من عادة الأعراب بحسب [جواد علي] أنهم إذا وجدوا وهنا في قوم هاجموهم، وإذا سمع آخرون يطمعون بالمسلمين أيضًا وهكذا. فإذا ما جوبهوا برد قوي يخيفهم ويظهر ضعفهم فانهم عندك يطلبون العفو والصفح ويظهرون الخضوع وعندما يجدون أن جهة ما قوية، فانهم يحاولون الانضمام اليها، رغم انهم قد تكون لهم عهودا مع طرف آخر، ويرى [جواد علي] أن الرسول (ﷺ) كان يعرف طبائع الأعراب هذه ويعاملهم بما خبره عنهم وما عرفه من صفاتهم، اذا فانه استطاع الحد من خطورتهم المتوقعة التي كانت ستتسبب بأذى للمسلمين اذا ما تركت دون معالجة[٤٧].

أدت خسارة المسلمين في معركة احد الى تحريك شهية الأعراب للحصول على الغنائم اثر ما توقعوه من ضعف لدى المسلمين بعد المعركة وكانت النوايا المتوقعة منهم هو غزو المدينة، فمن سنن الأعراب الإغارة على المغلوب، لسلبه ما قد يكون قد تبقى في يده من مال أو سلاح أو طعام، وانهم يأخذون أي شيء من المغلوب وان كان بسيطًا أو غير ذي قيمة، لأن الأعرابي يرى أن ما يسلبه مساعدًا له على فقره وعوزه، ولحساب الرسول لمثل هذا الاحتمال فإنه خرج الى منطقة عرفت باسم: "حمراء الأسد"[٤٨].

ولم يستقر في المدينة سوى يوم واحد بقصد إرهاب أعداءه، وليظهر انه لم تزل لديه قوة وان ما أصابهم في المعركة لم يوهن المسلمين تماما وانهم مستعدون لمجابهة الأخطار المحتملة، ويرى [جواد علي] أنه لو توانى ولم يظهر القوة لما استطاع من ضبط أمر أهل النفاق

والمعارضين له بيثرب، ولتجرأت عليه الأعراب الذين كانوا يترصدونه طامعين في الحصول على الأسلاب والغنائم التي كانت عماد حياتهم البائسة الفقيرة، وكان حدس الرسول (ﷺ) هذا دقيقا، لأنه لم تكد تصل أخبار خسارة احد الى مسامع زعماء القبائل حتى توجهوا لإهاجة قبائلهم وجمعوا الجموع في المدينة، وكان المنافقون في الداخل يحرضون الناس سرا عليه، لكنه كان قد اعد العدة لذلك فشرع يتسقط الأخبار عن ما جاوره من الأعراب الساكنين قرب المدينة حذر تحريض قريش لهم على مهاجمتها، وكانت خطته تسير طبقا لما يصله من معلومات فداهم من يريد به السوء وباغته قبل إقدامه على الهجوم بضربات استباقية، وأضاع بذلك على قريش فرصة إثارة القبائل واجبرها على عقد أحلاف معه، من هنا يمكننا النظر الى الاستراتيجيات المتعددة التي اتخذها الرسول (ﷺ) خصوصًا مع الأعراب وهي تتراوح بين التهديد والتحفز للمواجهة وبين إرسال السرايا مع محاولة جذبهم وتألفهم ويجعلونهم في الاحتياط (مع اعتمادهم على الحضر بالدرجة الأولى) وموادعتهم. لكن [جواد علي] ذكر أن أسلوب الموادعة معهم لا يمكن الاطمئنان إليه لسرعة انقلاب الأعراب على مَنْ يوادعهم، اذا ما وجدوا فرصة من ضعف أو أن مصلحتهم تقتضي الانقلاب[٤٩].

ومع ما في الأعراب من خشونة وغلظة مع الرسول (ﷺ) وأصحابه، إلا أن الرسول كان يشفق عليهم ويصفح عنهم، لعلمه بان هذه الخشونة والفظاظة هي نتاج بيئتهم ومحيطهم، فكان يلاطفهم ويتألف قلوبهم، وروي انه سمع مرة عائشة تذكر الأعراب، فقال لها: "يا عائشة ليسوا بأعراب، هم أهل باديتنا، ونحن أهل حاضرتهم فإذا دعوا أجابوا فليسوا بأعراب"، ويمكننا هنا أن نتلمس ما كان شائعا بين أهل المدن من نظرة سلبية تجاه الأعراب.

وجعل الرسول الهجرة بالأيمان فقد ورد في الحديث: "الهجرة هجرتان هجرة البادي، وهجرة الحاضر، أما هجرة البادي فعليه أن يجيب إذا دعي، وأن يطيع إذا أمر، وأما هجرة الحاضر فهي أشدها بلية واعظمها أجرا"، فأوجد لهم الهجرة بالإيمان أي انهم هجروا الشرك واستقووا بالإسلام لكنها هجرة لا تبلغ في فضيلتها هجرة مَنْ هاجر إلى الرسول وجاهد معه ونظرًا لعدم حضور الأعراب محاضر المسلمين والجهاد معهم وفعل أهل الحاضرة ذلك؛ لذا فقد فضّل أهل الحاضرة عليهم في العطاء، لما تحملوه من أعباء كبيرة في نصر الإسلام، مع علمهم الأكثر بالشريعة والحرص على أداء الفرائض مقارنة بأهل البادية.

وعندما سأل بعض الأعراب أبو عبيدة عامر بن عبد الله الجراح[٥٠]، أن يرزقهم، قال: "لا والله لا أرزقكم حتى أرزق أهل الحاضرة، فمن أراد بحبحة الجنة فعليه بالجماعة، فان يد الله مع الجماعة"[٥١]. ويوضح هذا القول إن أهل البادية ليسوا يدًا بيد مع المسلمين، بل قد يتم استدعاءهم وحيث إنهم يبدون وكأنهم ليسوا من الجند الذين يتفرغون تفرغًا كاملاً للقتال مع المسلمين فمن المنطقي أن يفضل مَنْ يكون مواصلاً التواجد في المشاهد وفي المعارك لا الذي يتم استدعاؤه أحيانًا فقط، ومن ثَمَّ لا يمكن مساواته مع أهل الحاضرة المقاتلين المتفرغين للحرب عند توزيع الغنائم.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن الحصين: "أن مر للجند بالفريضة، وعليك بأهل الحاضرة وإياك والأعراب فانهم لا يحضرون محاضر المسلمين ولا يشهدون مشاهدهم". لكنه قال إن على المسلمين نصرهم اذا ما اصطدموا مع مشركين، ومعاونتهم بالمال في حال أصابتهم جائحة أو جدب، وان يصلح ما بينهم عند حدوث خلاف أو شجار بينهم، وأوصى عمر بن عبد العزيز أيضًا بالأعراب خيرا؛ لأنهم مادة الإسلام وان يؤخذ من أغنياءهم ليرد الى فقراءهم،[٥٢] وبعد فتح مكة جعل الرسول (ﷺ) يمر بالأعراب بين مكة والمدينة، ويستنفرهم ليخرجوا معه، لكن كثير منهم تثاقلوا وتعللوا بأعذار شتى، منها: الانشغال بأموالهم وبأبنائهم وذراريهم مثل أعراب بني بكر ومزينة وجهينة، الذين قالوا: "نذهب معه الى قوم قد جاءوه فقتلوا أصحابه فنقاتلهم"، وقالوا أيضًا: "يريد محمد يغزوا بنا الى قوم مؤيدين في الكراع والسلاح، وقالوا: إن محمد وأصحابه أكلة جزور[٥٣]، أو أن محمدًا وأصحابه لا يرجعون من سفرهم هذا أبدًا، وأنهم أي المسلمين لا سلاح معهم، وأن أهل مكة قريبو عهد فيمن أصيب منهم ببدر[٥٤]. وحاول الرسول (ﷺ) تحضير الأعراب لجعلهم عنصرًا مفيدًا

يغذي الإسلام بدم جديد ويبني مجتمعًا مسلمًا، وحاول أن يغير بعض تسميات الأعراب فكانوا يسمون صلاة العشاء بـ: "العتمة"، فنهى عن ذلك واستحب الاسم الناطق بلسان الشريعة[٥٥].

ويتناول [جواد علي] عند حديثه عن عمرة الرسول(عام سبع هجرية)، بعد الاتفاق عليها في صلح الحديبية وأقام بمكة ثلاثة أيام[٥٦]، واثرها الخطير في نفوس الأعراب موضحًا أن الأعراب أذكياء في قراءة الأوضاع والأحوال التي تحيط بهم، فبدا وكأنهم عرفوا ضعف أهل مكة في الوقوف أمام القوة الجديدة، فكان لموقف الأعراب اثر في موازين القوى آنذاك، وبسبب انتهازيتهم بحسب [جواد علي] ولا يمكن الاطمئنان لهم لأنهم مع القوي مادام قويا مع لا مبالاتهم من الخروج من حليفهم والانضمام إلى الخصم أن وجدوا أن مصلحتهم تقتضي ذلك، من هنا كان عدم اعتماد الرسول (ﷺ) عليهم في القتال مع إسراعه بتأديبهم عندما يشعر انهم يريدون القيام بعمل ضده، مع عدم تعبئتهم عسكريا مع أصحابه عندما يلحون عليه في القتال وعندما يسمح لهم بذلك فانه يضعهم تحت قيادة قائد من قريش ويجعلهم تحت الرقابة أو أنه يرسلهم سرية لوحدهم لتأدية واجب ما. وعندما فكر في أداء العمرة فان الرسول ارسل سرايا على الأعراب لتأديبهم[٥٧].

ويبدو أن الأعراب ووضعهم كان يتوجه إلى ضعف فهم لم يعودوا قوة مهمة بعد نجاحات المسلمين، وكانت المعلومات ترد إلى الرسول (ﷺ) عن تحركاتهم، وعنما يسمع بتحرك قبيلة ما فإنه يرسل سرية لتأديبها، وقريش الطرف الأخر من الصراع فهي أيضًا لم تعد تأمل من الأعراب الكثير، وهي تعلم أيضًا انهم غير مؤتمنين، فبقيت لوحدها في مكة[٥٨]. وفي الكلام عن عيينة بن حصن الفزاري الذي تم ذكره في خبر آنفا فإنه يبدو أنه إعرابيا مثاليا بفجاجة سلوكه، مع عدم دخول الإيمان قلبه، وكان على نهج الأعراب في انتهاز الفرص وفي التبدل والتغيّر في المواقف، فاذا ما وجد قوة في نفسه وقومه استقوى وإذا وجد ضعفًا فيها ذل. لكنه يصفه بانه ذكي ذكاء البداوة. وقد أشير على الرسول بقتله لأمور بدرت منه، إلا أن الرسول رفض ذلك خشية أن يقول الناس أنه يقتل أصحابه[٥٩].

وذكر قبيلة تميم وإظهار بعضهم بعد إسلامهم وبعد وفاة الرسول (ﷺ) خشونة مع مصدقه[٦٠]، وأرادوا منعه صدقاتهم وكان معهم قوم من خزاعة فأرسل عيينة بن حصن الفزاري لتأديبهم، ويعود [جواد علي] الى فكرة التشدد مع الأعراب، فلابد من تأديبهم؛ لأن التساهل مع الأعراب في غير وقته يدفعهم الى الشعور بالقوة والتمرد على من ابدى التساهل، ولكنه يقول أن عيينة ابدى خشونة زائدة عن الحد معهم فاستبدل ببشر بن سفيان ساعيًا على صدقاتهم لكن خزاعة رفضت ذلك أيضًا[٦١].

ونفرت القبائل من مبايعة عمر بن الخطاب بالخلافة ويعلل [جواد علي] الأمر في أن البيعة لدى القبائل وأفرادها ليست أمرًا شخصيًا وأنها لم تبايعه لأنها تكرهه كشخص وإنما للجبلة التي جبلت عليها من حب للحرية في داخل مضاربها وأهلها هذه المعيشة التي مهما رآها الحضري قاسية فإنها الأحب إلى الأعرابي مادام طليقًا لا تقيده قيود الحضر فهو يهوى الحرية ولا يطيع الغريب بسهولة إلا بالإكراه والقهر وتبقى كذلك حتى تشعر بقوة في ذاتها فتنتفض وتعود لسيرتها الأولى لتعيش طليقة في ظل سادتها. ويشير إلى الأضرار الممكنة لهذا الأمر من حيث الأضرار بوحدة العرب واصطدامها بمبادئ الإسلام الذي دعا إلى الإخاء في (أمة العرب) و(أمة الإسلام). رأت القبائل بعد وفاة الرسول (ﷺ) وهي التي يرى [جواد علي] أنها أسلمت بإسلام رؤساءها، فيقول: "أن إسلام القبائل هو بإسلام الرؤساء لأن أفرادها تتبع رئيسها بالعصبية، فرأوا أن البيعة انتهت بموت عاقدها معهم، وانه حان التخلص من حكم قريش، ومن حكم المدن عليهم، فلا تجديد للبيعة ولا تسليم بالخلافة"، فعادت الى حياتها القديمة الطليقة، فلا صلاة ولا زكاة.

ويعود جواد على المثال النموذجي لديه في "الأعرابية" عيينة بن حصن الفزاري الذي وجد في وفاة الرسول فرصة للخروج على الطاعة لقريش، واتباع نبي من متنبئي حلفاءه وهو طليحة[٦٢]، وقال: "والله لإن نتبع نبيا من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبيًا لقريش وقد مات محمد وبقي طليحة"، فطابقه قومه على قوله. ويوضح

[جواد علي] من أن هذا الكلام يعبر عن عقلية البدوي ونظرته الى الحياة احسن تعبير، ويشير الى عدم فهم الأعراب للزكاة وكيف أنها ضريبة تستوفى لأغراض المصلحة العامة لتصرف في أوجهها التي ذكرت في كتاب الله وهو أي الأعرابي يراها إتاوة "خاوة" تدفعها القبائل الضعيفة الى القبائل القوية، وجزية تفرض على القبائل دلالة استذلالها وخضوعها امن فرضها عليها لذا فهي تأباها ولا تتقبلها بل تنفر منها نفورا شديدا وتعدها ذلة وضعة[٦٣]. ويتذكر العرب كيف كان الأعاجم والساسانيين والروم ومن تبعهما من المناذرة والغساسنة يأخذون المال كرها من العرب إذلالا لهم ودلالة خضوعهم فاخذ المال لديهم سمة الخضوع والذل والطاعة بحق القوة.

وعندما ذهب عمرو بن العاص في بلاد بني عامر ونزل عند: قرة بن هبيرة[٦٤]. فقال قرة لعمرو: "أن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة فان اعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع، وإذا أبيتم فلا تجتمع عليكم. ومع ما كانت تعانيه الأعراب من سوء حال مادية وما يؤثره تأدية المال عليهم وان كان قليلا فانهم لضيق حالهم يستعظمون إخراج شيء منه يكون مجبرًا على أدائه، حتى لو كانت زكاة لمنفعة العامة. وكانت وجوه جباة الصدقات من أكره الوجوه للأعراب، وكانوا يتحايلون في إخراج الصدقة وإنقاص نصابها بإخراج الهزيل من الماشية بدلا من الصحيح، وكثيرا ما كانت تقع مشادات بين من استحقت عليه الصدقة وبين من يجبونها. ورغم ذلك فلا يجب القول إن جميع القبائل ارتدت بل بعضها فقط هو مَنْ ارتد[٦٥]، ويرى [جواد علي] أن الجزيرة العربية لم تكن كلها أسلمت عند وفاة الرسول (ﷺ). أما إسلام القبائل وكما قلنا سابقًا إنما هو إسلام سادتها أما أفراد القبائل فيرى انهم ابعد الناس عن الدين والتدين وحتى إسلامهم فانه كان بالاسم فقط. لأن من طبيعة الأعراب عدم التدين وإذا تدين الأعرابي فأن تدينه ظاهري. وان سادة القبائل كانت تتربص بالإسلام وتراقب ما سيكون عليه أمر الرسول (ﷺ) فلما فتحت مكة وفرغ الرسول من تبوك[٦٦]، وأسلمت ثقيف، وفدت إلى الرسول الوفود في السنة التاسعة للهجرة، وعرفت هذه السنة بسنة الوفود[٦٧]، فكانت القبائل تعلن إسلامها. فلما كانت وفاة الرسول وولي أبا بكر ظن من بايع الرسول على الإسلام أن أمر الإسلام انتهى وأنه صار في حلٍّ من البيعة، حتى أعادهم الخليفة أبو بكر إلى الطاعة، ووحد الجزيرة لأول مرة.

ففي إشارته إلى ارتداد بني حنيفة في العام ١١هجرية[٦٨]، وشدة هذه الحركة وصلابة بني حنيفة وأن المسلمين اصطدموا قبل هذه الحركة بأعراب كان سلاحهم بسيطًا ولم تكن لهم حصون وأسوار يحتمون بها للدفاع، وكانوا يهربون بسرعة ولا يصمدون في ساحات المعارك وفي صدامهم مع بني حنيفة، يرى [جواد علي] إضافة إلى ما ذكر من حصانة مواضعهم وصمودهم أن من ضمن جنود المسلمين أعرابًا في صفوف المقاتلة وهؤلاء وكما يقول لا يعمدون إلى القتال على شكل صفوف ولا يطيقون مقارعة صفوف بني حنيفة، ويذكر أنهم هربوا مرات ثلاث فاربكوا بهروبهم صفوف المسلمين، ويشكك [جواد علي] باحتمال تواطؤ هؤلاء الأعراب مع بني حنيفة، وعندما أدرك المسلمون سبب الهزيمة قاموا بعزل الأعراب منهم وجعلوهم في موضع يمكن مراقبتهم منه مع اعتمادهم على مَنْ له خبرة في القتال ومَنْ شارك في معارك سابقة، ومَنْ صبر على القتال، فبدل خسارة ثلاث جولات ربحوا الرابعة[٦٩].

ويبدو أن مشادات حصلت داخل جيش المسلمين أثناء المعارك هذه، فالمهاجرين والأنصار وصموا أهل البادية بالجبن وهؤلاء اتهموهم بالأمر ذاته، فقال أهل القرى نحن اعلم بقتال أهل القرى منكم يا معشر أهل البادية، وقال أهل البادية: أن أهل القرى لا يحسنون القتال وما يدرون ما الحرب. فعزل أهل القرى عن أهل المدن وزحف المسلمون إلى ما عرف بحديقة الموت (كان بفناء اليمامة بستان لمسيلمة)، كان يُقال له: "حديقة الرحمن فلما قتل عندها قيل لها: حديقة الموت"[٧٠]. التي كان يتحصن بها مسيلمة وانتصروا عليه[٧١].

ويرى "[جواد علي]" أن الارتداد لم يكن ارتدادًا عن الإيمان بالله إلى عبادتهم الأولى لكنها ردة حاولوا فيها التخلص من سلطة المدينة عليهم، ولا ترى إلا الخضوع لحكم عرف قبيلتها وحكمه. كان موقف أبو بكر المتشدد مع القبائل العربية في يثرب وقع كبير على القبائل التي أعلنت عدم طاعة الخليفة وفي دفع الزكاة له. ولو أنه

تساهل معها فمن المحتمل أنه كان قد عرض المدينة إلى خطر الطمع فيها وربما كانت ستهاجم من قبلهم فباغتهم أبو بكر بهجوم مفاجئ أفزعهم فتراجعوا وهربوا ثم اتخذ قرارًا قويًا يقضي بعد الاستعانة بالعصاة وبمَنْ ارتد منهم، وحين عادوا إلى الطاعة أصدر أمره بعدم الاستعانة بهم في الجهاد خشية قيامهم بعمل يغدر بالمسلمين أثناء الجهاد، ويرى "[جواد علي]" أن الموقف يستدعي عدم إظهار التساهل معهم فهو في نظرهم وحسب فهمهم للمواقف إشارة إلى الضعف وهذا يحملهم على الطمع والتمادي على المسلمين والتوسع في المطالب والعودة إلى الحمية وعقلية الأعراب، وبعد توحيد جزيرة العرب بانتهاء ما عرف بالردة تم توجيه القبائل التي كانت تعيش حياة بؤس وفقر نحو الفتح، وبعد اطمئنان أبو بكر لاستقرار الأوضاع، وجه القبائل تجاه العراق وبلاد الشام وكان قرارًا صائبًا، إذ شغلت القبائل بالفتح بدل محاربة بعضها البعض ونسيت الأيام القريبة وما جرى فيها لعدم الاعتراف بسلطة قريش والامتناع عن أداء الزكاة، وخرجت تحارب تحت راية الإسلام[٧٢].

وفي الكلام عن المساهمين في الجهاد والفتوح وتجمعهم للذهاب للقتال، يشير إلى أن أكثر القادمين على الجهاد كانوا من الأعراب الذين لهم علم بأحوال أهل القرى وانهم في تجمعهم لإرسالهم الى الجبهات تأذى منهم أهل المدينة فقد كانوا جفاة فكانوا يريدون العلف لدوابهم ويبدو انه كان لا يكفي لأعداد كبيرة منهم عُدت بالألوف وعلى شكل موجات، فوقع بعض النفور بين هؤلاء وبين أهل المدينة. فجاء وفد همدان وكان عددهم يقارب الألفي مقاتل على أبي بكر بالمدينة وأمر أن يعسكروا للراحة ومع ما بدر من بعضهم من سلوك جاف تأذى بعض أهل المدينة منه، وشكوا لابي بكر ذلك فطلب أن يتحملوا ذرب ألسنتهم وعجلة يكرهونها منهم، وان الله مهلك بهؤلاء أعداء الإسلام وإنما هم إخوانكم وطلب تحمل الأمر منهم[٧٣].

وبوسعنا طرح السؤال التالي: إلى أي مدى كان الأعراب والبدو يمتلكون من يدون وجهة نظرهم في المدونات الرسمية أو غير الرسمية، ولو أنهم كانوا يمتلكون هذا الثقل التدويني هل ستبقى ذات النظرة السلبية عنهم؟ أن ما هو مكتوب إنما هي وجهة النظر الخاصة بالكتاب والمؤرخين الذين هم من أهل المدن والتي تتقاطع مع أهل الأعراب في أحيان كثيرة حتى من الناحية النفسية. ولو كان [جواد علي] أعرابيا فهل كان سيكتب بذات الطريقة أم أن سكناه في بغداد وفي مدينة الكاظمية التي تمتلئ بالزائرين الأعراب البسطاء قد كونت عنهم هذا الرأي الشائع عنهم ببساطة السلوك والملبس والكلام. والأمر ينسحب على مكة المركز الديني المقدس أيضًا وما يحمله أهلها أيضًا عن الأعراب الذين يردون إليها. أن التشابه في سلوكيات الأعراب في العصور القديمة وسلوكهم الحالي بحاجة الى ما يثبتها من أدلة ونماذج لهذ السلوك رغم عدم نفينا الجازم لذلك، أو أن سلوك أهل المدن في شبه الجزيرة يختلف بصورة مؤكدة مع سلوك الأعراب، رغم أن [جواد علي] يجد أن أهل المدن يتعصبون لَمَنْ هو من مدينتهم أو لأحيائهم، ولقبائلهم في داخل المدن ذاتها، وخير مثال على ذلك الصراع بين الأوس والخزرج في يثرب. وهو سلوك أي سلوك التعصب لا يتفرد به الأعراب فقط. عدا عن أن الاستقرار يحتم سلوكيات مختلفة عن سلوك التنقل المستمر الذي يجعل من الفرد لا ينتمي عاطفيًا لمكان ما.

خَاتمَةٌ

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

- يمكننا ملاحظة أن [جواد علي] وضع الأعراب تحت مجهر النظر والتحليل في مرات عدة، وهو يستند على نصوص تأريخية ونصوص دينية، توضح هذه النظرة في مجملها تقييما سلبيا للعلاقة بين الرسول (ﷺ) وبين الأعراب.
- يوجد وصفًا متنوعًا لعاداتهم التي لم تكن تتوافق مع التوجهات الإسلامية الجديدة، وتوضح اختلافا في وجهات النظر منبعها الاعتداد الزائد لهؤلاء بأنفسهم، وانتماءهم المحلي لرؤساء قبائلهم، وتغيير توجهاتهم بحسب الظروف.
- ليس للأعراب مبادئ دينية في الانتماء ثابتة لديهم، وهم بهذا الوصف يمتلكون حدسًا بالظروف الآنية فيكونون مع القوي عند إحساسهم بقوته والتأكيد على ضرورة إظهار القوة معهم، فإحساسهم بضعف الطرف الآخر تجعلهم يهجمون عليه وسلبه ما لديه بسبب وضعهم المعيشي السيء غالبًا.
- قد لا تكون النظرة الى الأعراب جديدة وقد تكون لها امتداداتها التأريخية الموغلة في القدم، فالانطباعات ربما تكون مسبقة وعدم الثقة بين الطرفين منبعها اختلاف بعض الطبائع، وأماكن الاستقرار، وأساليب العيش، والتفكير.
- لم نجد أدلة قوية على مدعيات منها عدم قدرة الأعراب على المطاولة في القتال وهو رأي تم ذكره عند الحديث عن معارك مسيلمة في اليمامة.
- يعزى السبب في خسارة المسلمين لمعارك عدة قبل الانتصار؛ لأن الأعرابي عندما يعلم بان أحدا له صلة ما به في المعسكر الآخر قد يوصل له المعلومات التي تخص معسكره.
- لم يكن الكثير منهم ملتزما بعقائد المسلمين أو أنه لا ينتمي إليهم بصدق وإخلاص، خاصةً في بداية الدعوة وعدم ترسخ الدين في النفوس، فربما كان الكثير من الأعراب يرونها معارك عادية ليست ذات طابع عقائدي تمامًا.

الإحالات المرجعية:

(١) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ١٤، الورقة ٢.
(٢) نصير الكعبي، الدكتور [جواد علي]، **أبحاث في تأريخ العرب قبل الإسلام المركز الأكاديمي للأبحاث**، ٢٠١١م، ١٩.
(٣) نصير الكعبي، الدكتور [جواد علي]، ٢٠.
(٤) نصير الكعبي، **قراءة في تأريخ العرب قبل الإسلام**، موقع Alhikmeh.org منشورة في ٣ سبتمبر، ٢٠١٨م.
(٥) الكعبي، **قراءة في كتاب تأريخ العرب قبل الإسلام**.
(٦) الغانمي، سعيد، **البيئة الرمزية لأسوار اوروك بين الداخل والخارج**، الصفحة الشخصية للغانمي منشورة في ١٦ شباط ٢٠٢٢م.
(٧) كافين رايلي، **الغرب والعالم القسم الأول**، ترجمة: عبد الوهاب المسيري، هدى عبد السميع حجازي، عالم المعرفة العدد/ ٩٥، يونيو، ١٩٨٥م.
(٨) **سفر التكوين**، الإصحاح الثالث والأربعون الآية ٣٢.
(٩) هشام حتاتة، **الصراع بين الراعي والمزارع**، http.//www.ssrcaw.org.
(١٠) سورة التوبة، الآية/ ٩٧.
(١١) الزبيدي، تاج العروس٣/٣٣٤.
(١٢) حميد المطبعي، الدكتور [جواد علي]، **موسوعة المفكرين والأدباء العراقيين**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م، ١٥٥.
(١٣) [جواد علي]، المفصل، ١/٢٧٨.
(١٤) [جواد علي]، المفصل ١ / ١٧٢.
(١٥) الدكتور سعد الصويان، من رموز الثقافة الصحراوية، الغروس والذود . aad sowayan.info
(١٦) [جواد علي]، المفصل، ١/٢٨٣.
(١٧) المصطفى أيت يدير، **القبيلة في المدينة مساهمة في تحليل عوائق التمدن بالمجالات الطرفية المغربية حالة مدينة بني ملال**، دورية كان التاريخية، العدد ٥١، مارس ٢٠٢١م، ٣٤.
(١٨) [جواد علي]، **المفصل**، ١/ ٢٨٢.
(١٩) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** منها في المفصل.
(٢٠) [جواد علي]، **المفصل**، ١/٢٨٤.
(٢١) [جواد علي]، **المفصل**، ١/ ٢٨٥.
(٢٢) [جواد علي]، **المفصل**، ١/ ٢٨٩.
(٢٣) [جواد علي]، **المفصل**، ٧/ ٢٩٣.
(٢٤) [جواد علي]، **المفصل**، ١/ ٢٨٤.
(٢٥) **سورة التوبة**، الآية/ ٩٧ وما بعدها.
(٢٦) **سورة الحجرات**، الآية/ ١١٤.
(٢٧) **سورة التوبة**، الآية/ ٩٩؛ وأورد الآية [جواد علي]، المفصل، ١/ ٢٨١.
(٢٨) [جواد علي]، المفصل، ١/ ٢٧٨.
(٢٩) [جواد علي]، **المفصل**، ١/ ٢٧٧.
(٣٠) **سورة الزخرف**، الآية/ ٢٣، المائدة، الآية: ١٠٤.
(٣١) **سورة المائدة**، الآية: ١٠٤.
(٣٢) **الكتاب المقدس**، سفر التكوين، الآية: ١١٢.
(٣٣) [جواد علي]، **المفصل**، ١/ ٢٨٢.
(٣٤) **سورة الحجرات**، الآية/ ١١٤.
(٣٥) **سورة التوبة**، الآية/ ١٠١.
(٣٦) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ١٤، الورقة ٢.

(٣٧) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٤٠، الورقة ٨٥.

(٣٨) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٤، الإسلام دين الله، الورقة ٢٠.

(٣٩) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ١٨، الإسلام دين الله، الورقة ٢٤.

(٤٠) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ١٣ ب، أمة واحدة، الورقة ٣٢.

(٤١) **المدر**: هو قطع الطين اليابس المتماسك، أو الطين العلك الذي لا رمل فيه، قال عامر بن الطفيل للنبي (ﷺ) لنا الوبر ولكم المدر أنما عني به: المدن، أو الحضر. لان مبانيها لنما هي بالمدر وعني بالوبر الاخبية لان ابنية البادية الوبر. الزبيدي، تاج العروس، ١٤/ ٩٥.

(٤٢) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ١٤، الورقة ٢٢.

(٤٣) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ١٤، الورقة ١١.

(٤٤) **آل الرشيد:** من قبائل شمر أول من تولى منهم عبد الله بن رشيد، ١٢٥٠-١٢٦٥هـ، ١٨٣٤/١٩٢١م.

(٤٥) أحمد معمور العسيري، **موجز التأريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر**، ٣٦٥.

(٤٦) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام الفايل** ١٥، الورقة ١٥.

(٤٧) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام الفايل** ٤، ٢١ طه ٤.

(٤٨) موضع على ثمانية أميال من المدينة اليه انتهى رسول الله (ﷺ) يوم أحد في طلب المشركين. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٢/ ٣٠١.

(٤٩) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٢٤، الورقة ١٣٢.

(٥٠) أسلم قبل دخول الرسول دار الأرقم، وهاجر الى الحبشة، وهاجر من مكة الى المدينة، وشهد بدر واحد والخندق وبعث الى ذي القصة في سرية، مات في طاعون عمواس سنة ١٨ للهجرة. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٣/ ٣٨٢.

(٥١) أبو عبيد، الأموال، ٢٩٠.

(٥٢) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ١٤ ب، الورقة ١١.

(٥٣) أي قليل يشبعهم جزور واحد، يضرب مثلا في العدد والأمر الذي لاعبا به. السيوطي، حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي، ٣/ ٤٧٥.

(٥٤) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٢٦، الورقة ١٤.

(٥٥) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ١٤ ب، حزب الله وأمة الإسلام، الورقة ٢٧.

(٥٦) الطبري، **تأريخ الطبري**، ٣/ ٢٥.

(٥٧) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٣١، العمرة، الورقة ٤٥.

(٥٨) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٣١، العمرة، الورقة ٣.

(٥٩) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٣٢، تصفية الشرك، الورقة ١٧.

(٦٠) المصدق: هو العامل أخذ الصدقة والمستعمل على الصدقات. عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية- نظام الحكومة النبوية، ١/ ٣١٤.

(٦١) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٣٣ أ، عودة المنتصر ٥٦.

(٦٢) طليحة الأسدي ارتد ببني أسد فيمن ارتد وادعى النبوة فلقيه خالد بن الوليد محاربًا فهرب الى الشام، ثم شهد القاسية ونهاوند. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ٣/ ٤٤١.

(٦٣) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٣٩، بدء الردة ٤٢- ٤٣.

(٦٤) قرة بن هبيرة بن عامر بن سلمة الخير بن قشير. هو الذي قتل عمران بن مرة الشيباني. وفد على النبي (ﷺ) فاكرمه وكساه، واستعمله على صدقات قومه. ابن سعد، الطبقات الكبرى، الطبقة الرابعة، ٦١٨.

(٦٥) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٣٩، بدء الردة ٤٥- ٤٦.

(٦٦) **تبوك**: هي غزوة حدثت في رجب من سنة تسع للهجرة، قادها الرسول(ص). خليفة بن خياط، **تأريخ خليفة**، ٩٢.

(٦٧) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٣٩، بدء الردة ٧٧- ٧٩.

(٦٨) عن بني حنيفة وارتدادهم وقتال خالد بن الوليد لهم، ينظر: الواقدي، كتاب الردة، ١٣٠؛ الطبري، **تأريخ الطبري**، ٣/ ٢٨٨.

(٦٩) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٤١ أ، أمر مسيلمة ٦- ٧.

(٧٠) الصنعاني، **التكملة والذيل والصلة**، ٥/ ٢٥. في رواية أخرى أن رجلاً من بني حنيفة صاح بإصحابه أثناء القتال: "ويلكم يا معشر بني حنيفة اعلموا أن هذه الحديقة حديقة الموت، فقاتلوا أبدًا حتى تموتوا كراما". الواقدي، **كتاب الردة**، ١٣٣.

(٧١) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٤١ أ، بدء الردة ٤٢.

(٧٢) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٣٩، بدء الردة، الورقة ٨٤- ٨٥، ٨٨.

(٧٣) **مخطوطة تأريخ العرب في الإسلام** الفايل ٤١ أ، الفتوح الورقة ٧١.